في الأدب الفرنسي

٤ ـ الدوق دى لاروشفوكو

للدكتور حسن صادق

ومن يوم ان غشى صالون المركيزة دى سابليه ، شعر بميل شديد الى كتابة الحكم والمواعظ ، وبذ فى هذا النوع من الأدب ربة البيت وجاك إسبريه . وهذا أول نجاح صادفه فى حياته وبعث السرور فى دخيلته . وكان من القواعد المألوفة فى هذه المجالس أن الانسان إذا أراد أن يكتب للجمهور ، وجب عليه أن يستنير برأى زملائه . وقد ذكر ذلك سجريه فقال : « كان من الواجب على الذين يكتبون للجمهور أن يطلعوا أصدقاءهم على ما يكتبون لاصلاحه وتهذيبه . وقد اتبع الدوق دى لاروشفوكو هذه القاعدة فى مذكراته وفى مواعظه . فكان يرسل الى ما يكتبه ويسألنى أن أحتفظ بالكراسات خمسة أو ستة أسابيع حتى يتسنى لى إنعام النظر فيها . ومن هذه المواعظ ما تغير أكثر من ثلاثين مرة »

وكثيراً ما كان يستشير المركيزة ويسألها أن تبدى رأيها فيما يكتب ، ومما يثبت ذلك أنه كتب إليها فى أحد الأيام يقول : « لا يصح أن تسمى هذه المواعظ بهذا الاسم إلا إذا وافقت عليها . إنك لا تستطيعين إنكارها ، لأن الكثير منها يرجع إليك » . وقد بلغ من اهتمام المركيزة بهذه المواعظ أنها نقلتها وأطلعت عليها كثيراً من أصدقائها فى غيبة المؤلف وجمعت آراءهم فى أسلوبها ومعانيها .

وقضى عام ١٦٦٤ فى مراجعة كل مواعظه وتهذيب أسلوبها وعاونه على ذلك جاك إسبريه والمركيزة دى سابليه . وفى عام ١٦٦٥ ظهر الكتاب ، أى فى السنة التى ظهرت فيها قصص لافونتين المشهورة . وهذا الشاعر سيكون موضوع حديثنا فى المقال الآتى

وعقب نشر هذه المواعظ ، اتجهت المركيزة الى العبادة وتوددت الى الدوقة دى لونجفيل ، فأعرض عنها لاروشفوكو بعد هذه الصلة الوثيقة التى استمرت خمسة أعوام . ثم شاء القدر أن يقضى أعوامه الأخيرة فى هدوء وسعادة ، فساق إليه الكونتس دى لا فايت [1] تخلص له الود والوفاء وتهدهد نفسه الحزينة فى شيخوخته

وفى عام ١٦٦٧ خاض غمار الحرب لآخر مرة فى حصار ليل على الرغم من مرضه . ثم اشتدت عليه وطأة الداء فكف عن زيارة البلاط وراض نفسه على أن يقضى بقية أيامه فى الراحة العذبة بجانب صديقته التى شهد لها بوالو [2] بالتفوق فى الأدب والنبوغ فى الكتابة

وكان يجتمع فى بيته الكتاب والشعراء . فكورنى قرأ فى صالونه قصة (بولشيرى) ، وراسين [3] قصة (اسكندر) ، وبوالو كتابه (الفن الشعرى) ، وموليير [4] (النساء العالمات) هذه الكوميديا المشهورة التى قيل فى ذلك الحين إنها سخرية من مدام دى سفنيه ومدام دى لا فايت .

وشغل أعوامه الأخيرة فى تنقيح كتابه الصغير «مواعظ» . فالطبعة الأولى فى عام ١٦٦٥ وبها ٣٠٧ مواعظ ، والطبعة الثانية فى ١٦٦٦ وبها ٣٠٢ موعظة ، والثالثة فى عام ١٦٧١ وبها ٣٤١ موعظة ، والرابعة ١٦٧٥ وبها ٤١٣ موعظة ، والخامسة فى عام ١٦٧٨ وبها ٥٠٤ مواعظ ، وفى هذه السنة الأخيرة نشرت حكم المركيزة دى سابليه وكتاب جاك إسبريه « شوائب الفضائل الانسانية »

وماتت زوجه فى عام ١٦٧٠ فعاشت معه مدام دى لافايت لا تفارقه إلا لماما ، وبفضلها خفت لهجة المواعظ القاسية فى طبعتى عام ١٦٧١ وعام ١٦٧٨ . ويصح أن نطبق عليها جملة الشاعر الألمانى الأكبر (جوت) التى قالها عن (مدام دى ستيل) « إنها تحيل المرارة الى عذوبة » . ساعدته على تنقيح مواعظه ،

---

(١) ١٦٣٣ — ١٦٩٣ أديبة فرنسية خصبة الخيال رائعة الأسلوب، ولها آثار أدبية كثيرة قيمة أهمها قصة « الأميرة دى كليف »

(٢) ١٦٣٦ — ١٧١١ شاعر فرنسى عظيم وناقد سديد الرأى نزيه الحكم . وكان الشعراء والكتاب فى عصره يخشون نقده . وأشهر مؤلفاته (الفن الشعرى)

(٣) ١٦٣٩ — ١٦٩٩ . شاعر فرنسى عبقرى بلغ قمة المجد الأدبى بتراجيدياته الشعرية الخالدة

(٤) ١٦٢٢ — ١٦٧٣ . أحد شعراء فرنسا الخالدين . وكوميدياته الشعرية فى غنى عن التعريف

وساعدها على كتابة قصصها وعلى الأخص قصتها المشهورة التي خلدت ذكرها وهي « الأميرة دي كليف » . وقد اعترفت بذلك وقالت « استفدت من عقله ، ولكني أصلحت قلبه » . أصلحت قلبه لأنها أخلصت له الحب وهيأت له أسباب السعادة

وفي شهر يونيو عام ١٦٧٢ جرح ابنه الأكبر في موقعة الرين جرحاً بليغاً وقتل فيها ولده الرابع والكونت دي سان بول ابنه غير الشرعي من الدوقة دي لونجفيل ، فانتابه حزن أليم . وذكرت مدام دي سفنييه هذه الحادثة لابنتها في إحدى رسائلها « كنا عند مدام دي لافايت لما بلغه ما أصاب أولاده ، فسالت دموعه من أعماق قلبه على خديه . . . رأيت قلبه عاريا في هذا الظرف القاسي فعرفت فيه قلب رجل شجاع ثابت الجنان راجح العقل وافر الحنان »

ولما ماتت أمه في عام ١٦٧٨ ، وكان يحبها حباً شديداً ، كتبت مدام دي سفنييه الى ابنتها تقول : « رأيته يبكي في حنان جعلني أعبده »

وبكاؤه أولاده وأمه شيء عادي لا يستحق الذكر . وإنما ذكرته مدام دي سفنييه لأن الناس اعتقدوا أن هذا الرجل الذي أنكر العواطف الانسانية في كتابه ، غليظ القلب عار من العواطف ، فأرادت أن تمحو ما وقر في أذهانهم وتبرهن لهم على خطأ اعتقادهم

وذات مرة فاجأته مدام دي سفنييه « متلبساً بالحنان » إذ سمع قصة تدل على الشجاعة ونبل العاطفة في أشد المواقف هولاً فبكى . وفي هذا تقول : « إنه يبكي نفسه بإعجابه بنبل هذه العاطفة » وأوحت إليه هذه القصة إحدى مواعظه : « يشعر الانسان بأن له نصيباً في الأعمال الجميلة إذا مدحها بقلب خالص »

وقبل موته بقليل عرض عليه (هويه) أحد معلمي ولي العهد الدخول في مجمع العلماء ، فاعتذر من القبول بالمرض . ولكن (هويه) يقول في مذكراته ان سبب رفضه يرجع الى خجله الشديد في حضرة الجمهور

وفي أوائل شهر مارس عام ١٦٨٠ استبد به الداء ، فعاده جميع الأطباء النابهين ، ثم دعي (بارت) الطبيب الانجليزي المشهور لعلاجه ، ولكن الطب عجز عن قهر المرض . وفي ١٥ مارس كتبت مدام دي سفنييه الى ابنتها تنبئها بحالة الدوق وتظهر لها اعجابها بهدوء نفسه واطمئنانه الى لقاء الموت

وفي يوم ١٦ مارس استوفى أنفاسه ليلا بين ذراعي بوسويه [1] ، وهو في السابعة والستين من عمره ، أي بعد موت الدوقة دي لونجفيل بعام ، وبعد نشر قصة مدام دي لافايت « أميرة دي كليف » بعامين وقد خلف لأولاده ديناً كبيراً على الرغم من ثروته الهائلة . ولكن ابنه الأكبر فرنسوا السابع نال بحكمته عطف الملك وحبه ، وأصلح بمعونته ما أفسده أبوه

صفاته

ذكرنا في تاريخ حياته أنه وصف نفسه كتابة في صالون الآنسة دي مونبانسييه ، ونشر هذا المقال عام ١٦٥٩ ، فكان أول عهد الجمهور بآثار هذا الكاتب الأدبية . وقد استهله بوصف دقيق لقامته وشعره ورأسه وأسنانه ، ثم قال . « يحمل وجهي سمة الحزن وطابع العزة ، وهذا ما يجعل الناس يعتقدون خطأ أن من طبعي ازدراءهم . ومزاجي تستقر فيه الكآبة وتألفه ، ولم يرني أحد من الناس أضحك أثناء ثلاثة أعوام أو أربعة إلا ثلاث مرات أو أربع ، ويخيل الى أني كنت أحتمل اكتئاب مزاجي وأجد فيه بعض الراحة والهدوء لولم يستطب صحبتي اكتئاب آخر يملأ مخيلتي ويستبد بفكري ، ويجعلني أقضي جل وقتي إما صامتا حالما وإما متكلما دون أن ألقي بالي الى ما أقول »

وليس من العسير أن نجد سبب هذا الاكتئاب الآخر ، فان ذكريات الحرب الاهلية تركت في نفسه أثراً اليما ، وولدت في مخيلته الاكتئاب الباطني الذي غمر « مواعظه » فبدت للناس قاتمة حزينة .

يتبع

حسن صادق

---

(١) ١٦٢٧ — ١٧٠٤ قسيس فرنسي نال إجازة الدكتوراه في اللاهوت في عام ١٦٤٨ وأهدى رسالته الى الأمير دي كونديه واشتهر بالخطابة الدينية التي تملك على السامع وجدانه وتغمره بالنور . وله مؤلفات دينية قيمة فيها جمال التعبير ودقة البحث واستقامة الفكر